بعض القيود تُكبّل الجسد...
ولا تستطيع أن تُسجن الروح.

عقود من القهر والقيود

قصة قصيرة

أمي...
إن استطعتِ يوماً
قراءة هذه الكلمات
فاعلمي أنني ما زلت
أحبك.

يمنى داي
كاتبة وقاصة تونسية

عُقود من القهر و القيود

يمنى داي

المستوى : الثانية علوما

المعهد النموذجي بقابس

إهداء :

إلى كُلِّ رُوحٍ صَامِدَةٍ فِي غَزَّةَ،

إلى كُلِّ مَن عَاشَ، أَحَبَّ، وَخَسِرَ...

إلى كُلِّ الأَسْرَى الَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الظُّلُمَاتِ الأَمَل...

وَأَخِيرًا، إِلَى رُوحِ **أَنَسِ الشَّرِيفِ** الْبَطَل،

الَّذِي عَاشَ كَمَا الرِّجَالِ، وَاسْتُشْهِدَ كَمَا يَلِيقُ بِالرِّجالِ.

كُنْتَ صَوْتَ الْحَقِّ، وَصَوْتَ غَزَّةَ الَّذِي لَا يَعرفُ الانْكسار،

ثَبَتَتْ شَهَادَتُكَ بِإِذْنِ اللهِ، وَسَتَظَلُّ ذِكْرَى بُطُولَتِكَ نُورًا يَهْتَدِي بِهِ الأَحرار.

1

لَمْ يَكُنْ فِي المَكَانِ شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى الزَّمَانِ، لا ساعَةٌ، لا نافِذَةٌ، لا صَوْتٌ، لا أَثَرَ لشَمْسٍ تَميزُ الصَّباحَ مِنَ الْمَساءِ.
كانَ المكانُ أَرْبَعَةَ جُدْرانٍ مِنْ إِسْمَنْتٍ بارِدٍ، أَظُنُّها ما عَرَفَتْ دِفْئًا مُذْ وُجِدَتْ، تَقْبِضُ عَلَيَّ كَكَفٍّ غَلِيظَةٍ تَعْتَصِرُ ذاكِرَةَ رَجُلٍ لَمْ يَتَبَقَّ لَهُ مِنَ الْحَياةِ شَيْءٌ.
قَضَيْتُ هُنا... لا أَعْلَمُ إِنْ كانَتْ سِنينَ، أَمْ عُقُودًا، أَمْ فُصُولاً تَراكَمَتْ فَوْقَ بَعْضِها...
وَلَكِنِّي أَعْلَمُ، جَيِّدًا، أَنَّ هَذا السِّجْنَ الْانْفِرادِيَّ لَمْ يَكُنْ زِنْزَانَةً لِجَسَدِي فَقَطْ، بَلْ مَقْبَرَةً لِصَوْتِي، لِنَفْسي، لِذاكِرَتي، لِحُلُمي الَّذِي ماتَ آلافَ الْمَرَّاتِ...
لَمْ أُحاكَمْ.
لَمْ يُقْرَإِ اسْمي فِي قاعَةٍ، وَلَمْ تُفْتَحْ أَمامِي مِلَفّاتٌ، لَمْ يُسْمَحْ لِي بِقَوْلِ: "أَنا بَرِيءٌ"، وَلَمْ يَنْظُرْ فِي عَيْنَيَّ قاضٍ واحِدٌ.
اعْتُقِلْتُ فَقَطْ.

فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى، سَأَلَنِي أَحَدُهُمْ عَنِ اسْمِي قَبْلَ أَنْ يَرْكُلَنِي بِقَدَمِهِ فِي وَجْهِي، ثُمَّ قالَ لِي:
"أَنْتَ الْآنَ رَقْمٌ، لاَ اسْمَ لَكَ وَلا مَاضيَ".
وَلَمْ أَحْتَجْ وَقْتًا طَوِيلاً لِأُدْرِكَ أَنَّهُ كَانَ صادِقًا.
أَصْبَحْتُ رَقْمًا فِي سِجِلٍّ قَذِرٍ، مِلَفٍّ مَنْسِيٍّ بَيْنَ أَكْوامِ الْمِلَفّاتِ الَّتِي لاَ تُقْرَأُ.
كُلَّ صَباحٍ، يُوقِظُنِي صَوْتُ خُطُوَاتِ الْحارِسِ فَوْقَ الْبِلاطِ، وَاحْتِكَاكِ مَفاتيحِهِ بِالْحِزامِ، وَصَدَى صَرِيرِ الْبَوّابَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ.
لا شَيْءَ يَتَغَيَّرُ.
يَفْتَحُ الْبابَ، يَرْمُقُنِي بِنَظْرَةٍ بارِدَةٍ كَالمَوتِ، ثُمَّ يُغْلِقُهُ بِلاَ كَلِمَةٍ.

لَمْ أَنْسَ... لَمْ أَنْسَ كَيْفَ اخْتَطَفُونِي مِنْ بَيْنِ أَهْلِي، دُونَ إِنْذارٍ، دُونَ تُهْمَةٍ.
أَتَذَكَّرُ أُمِّي، كانَتْ تَصْرُخُ، وَتُقاوِمُ، وَتَبْكِي، وَكانُوا يَدْفَعُونَها بِأَعْقابِ الْبَنادِقِ، وَأَنا مَرْبُوطُ الْيَدَيْنِ، أَنْظُرُ إِلَيْها، وَلا أَقْدِرُ حَتّى أَنْ أَلْمَسَ طَرَفَ جِلْبابِها.
لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ وَقْتٌ لِأُوَدِّعَها، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ صَوْتٌ أَصْرُخُ بِهِ حِينَها، فَقَطْ نَظْرَةٌ طَوِيلَةٌ.
كُنْتُ شابًّا، فِي بِدَايَةِ العِقْدِ الثَّالِثِ مِنْ عُمْرِي، أُؤْمِنُ بِأَنَّ الْوَطَنَ شَيْءٌ يُحْفَرُ فِي الْقَلْبِ،
وَلَكِنَّهُمْ رَغْمَ ذَلِكَ، صادَرُوا قَلْبِي ثُمَّ مَضَوْا بِي إِلَى جَحِيمٍ لا اسْمَ لَهُ سِوَى: "سِجْنِ الِاحْتِلاَلِ..."

مَرَّتِ السَّنَواتُ وَأَنا أَنْتَظِرُ.

انْتَظَرْتُ ضِياءً لا يَأْتِي،

وَانْتَظَرْتُ رِسالَةً لا تُسَلَّمُ،

وَانْتَظَرْتُ إِفْراجًا لا يُعْلَنُ،

وَانْتَظَرْتُ وَجْهَ أُمِّي وَلَوْ فِي الْحُلْمِ،

لَكِنَّ الْحُلْمَ لا يَزُورُ السُّجَناءَ كَثِيرًا، يَتَهَرَّبُ مِنْهُمْ، يَخافُ أَنْ تَتَلَوَّثَ أَجْنِحَتُهُ بِرائِحَةِ قَهْرِهِم.

كَانُوا يُغَيِّرُونَ الْحُرّاسَ بِشَكْلٍ دَوْرِيٍّ،

أَمَّا أَنا، فَكُنْتُ الثّابِتَ الْوَحِيدَ.

حَفَرْتُ بِظُفْرِي عَلَى الْحائِطِ سَبْعَةَ أَعْوامٍ، حَتَّى تَآكَلَ الظُّفْرُ، وَسَقَطَ.

ثُمَّ حَفَرْتُ بِقِطْعَةِ حَجَرٍ صَغِيرَةٍ سَبْعَةً أُخْرَى،

ثُمَّ فَقَدْتُ الْحَجَرَ،

ثُمَّ فَقَدْتُ الْعَدَّ،

ثُمَّ فَقَدْتُ الْأَمَلَ.

لَيْلُ الزّنَازِنِ الطّوِيلُ يَعْرِفُنِي.

يَعْرِفُ نَسَقَ أَنْفاسِي،

يَعْرِفُ رَعْشَةَ أَصَابِعِي حِينَ يُفْتَحُ الْبابُ فَجْأَةً،

ويَعْرِفُ صَمْتِي حِينَ يمتدُّ الكَابُوسُ عامًا آخَرَ فِي هَذَا الْمَكانِ اللَّعِينِ.

كانُوا يَضْرِبُونَنِي لِأَنِّي لا أَتَكَلَّمُ، ثُمَّ يَضْرِبُونَنِي إِنْ تَكَلَّمْتُ...

أَنْ تَحْيَا جَسَدًا وَتَنطَفِئَ رُوحُكَ، تِلْكَ أَقْسَى صُوَرِ الْمَوْتِ.

كُلُّ الَّذِينَ دَخَلُوا مَعِي خَرَجُوا،

بَعْضُهُمُ اسْتُشْهِدَ،

بَعْضُهُمْ حُرِّرَ،

وَبَعْضُهُمْ جُنَّ.

أَمَّا أَنَا،

أَنا مُجَرَّدُ رَقْمٍ،

سَجِينٌ لا يُذْكَرُ اسْمُهُ،

وَلا يُضَافُ لِقَوائِمِ التَّبَادُلِ،

وَلاَ يَظْهَرُ فِي نَشَراتِ الْأَخْبارِ.

وَها أَنَا الْآنَ، بَعْدَ ثَمانِيَةٍ وعِشْرِينَ عَامًا،

لاَ شَيْءَ يُواسِينِي سِوَى فِكْرَةٍ أَنِّي لَمْ أَخُنْ.

أَنِّي، رَغْمَ كُلِّ الْقَهْرِ، لَمْ أَبِعْ كَرَامَتِي،

وَلَمْ أَشْهَدْ زُورًا عَلَى وَطَنِي،

وَلَمْ أَمْحُ هُوِيَّتِي قَطُّ.

بَعْدَ مَا يُجاوِزُ عِقْدَيْنِ مِنَ الْقَهْرِ،

مَا زِلْتُ أُحْصِي عَدَدَ الثُّقُوبِ فِي الْجِدارِ،

وَعَدَدَ الشَّعَيراتِ الْبَيْضاءِ الَّتِي تَنبُتُ عَلَى صَدْرِي.

ما زِلْتُ هُنا، أَتَنَفَّسُ بِثِقَلٍ،

أُكَلِّمُ الْجُدْرانَ،

أَسْتَنِدُ إِلَى حائِطٍ وَأَغْفُو لِدَقِيقَةٍ،

ثُمَّ أَسْتَيْقِظُ لِأَبْدَأَ مِنْ جَدِيدٍ.

لَمْ أَعُدْ أَحْلُمُ بِالْخُرُوجِ،

وَلَكِنِّي أَحْلُمُ بِأَنْ يَصِلَ صَوْتِي يَوْمًا مَا،

إِلَى وَلَدٍ صَغِيرٍ،

يُخْبِرُهُ أَبُوهُ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ لَيْسَتْ أُنْشُودَةً يَتَرَنَّمُ بِها أَيُّ كَانَ...

بَلْ ثَمَنُهَا: دَمٌ، وَوَجَعٌ، وَذاكِرَةٌ حَيَّةٌ...

أُحَدِّقُ فِي الْفَرَاغِ، أُحَاوِلُ أَنْ أَهْرُبَ مِنْ سَطْوَةِ هَذَا الصَّمْتِ الَّذِي يَلْتَفُّ حَوْلِي. كُلُّ شَيْءٍ صَامِتٌ، إِلَّا عَقْلِي الَّذِي يَعُجُّ بِالْفَوْضَى. أَفْكَارٌ تَصْطَدِمُ بِبَعْضِهَا الْبَعْضِ، ذِكْرَيَاتٌ تَنْسَلُّ مِنَ الْمَاضِي لِتَخْتَرِقَ رَأْسِي كَالرِّمَاحِ، تَثْقُبُ جُمْجُمَتِي فِي أَكْثَرِ الْأَمَاكِنِ إِيلَامًا. لَيْسَتْ مُجَرَّدَ ذِكْرَيَاتٍ، بَلْ هِيَ أَشْبَاحٌ تَعِيشُ بِدَاخِلِي، تُعِيدُ نَفْسَهَا عَلَى مَسْمَعِي مِرَارًا وَتَكْرَارًا، كَأَنَّهَا تَتَلَذَّذُ بِتَعْذِيبِي.

كَانَ صَبَاحُ الثُّلَاثَاءِ، الثَّلَاثِينَ مِنْ آذَارَ سَنَةَ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَتِسْعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ، قَاتِمًا بِكُلِّ مَا تَحْمِلُهُ اللَّفْظَةُ مِنْ مَعْنًى. وَالضَّوْءُ الْمُتَسَلِّلُ مِنَ النَّافِذَةِ بَدَا كَقُرْصِ نَارٍ تَشْتَعِلُ فِي قُبَّةِ فَرَاغٍ خَانِقٍ.

كُنْتُ جَالِسًا فِي الطَّرَفِ الْقَصِيِّ مِنَ الْغُرْفَةِ، شَارِدًا كَمَنْ فَقَدَ مَعْنَى الزَّمَانِ. وَبَيْنَمَا أَنَا أُنَاجِي صَمْتِي، رَأَيْتُهَا تَقْتَرِبُ مِنْ رَأْسِ الطَّرِيقِ الْمُحَاطِ بِأَشْجَارِ الزَّيْتُونِ. تَمْشِي بِقَامَتِهَا الْعَالِيَةِ، كَأَنَّهَا تَنْبَثِقُ مِنْ رَحِمِ الأَرْضِ.
وَقَفْتُ خَلْفَ النَّافِذَةِ الْمُشْرَعَةِ، أُتَابِعُ خُطَاهَا الْهَادِئَةَ بِعَيْنَيْنِ تَسْتَجْدِيَانِ الدِّفْءَ. وَعِنْدَمَا وَصَلَتْ، أَلْقَيْتُ بِنَفْسِي فِي أَحْضَانِهَا كَطِفْلٍ ضَائِعٍ وَجَدَ بَيْتَهُ بَعْدَ غُرْبَةٍ طَوِيلَةٍ. سَأَلَتْنِي عَنْ حَالِي، فَأَجَبْتُهَا بِكِذْبَةٍ نَبِيلَةٍ: "أَنَا بِخَيْرٍ". "وَكَانَتْ مَلَامِحُ وَجْهِهَا تُفْصِحُ صَامِتَةً : "أَعْلَمُ أَنَّكَ لَسْتَ كَذلِكَ، وَلَكِنِّي لَنْ أُصِرَّ".

دَخَلْنَا الْبَيْتَ، أَعَدَّتْ لِي رَغِيفِي الْمُفَضَّلَ، وَجَلَسْنَا سَوِيًّا إِلَى الطَّاوِلَةِ. جَمَعْتُ شَتَاتَ أَفْكَارِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهَا :
"لَوْ طَلَبْتُ مِنْكِ اليَوْمَ أَنْ تَدَعِينِي أَلْتَحِقُ بِصُفُوفِ الفِدَايِيِّينَ، هَلْ تُوَافِقِينَ؟"

صَمَتَتْ. جَفَّ عَلَى وَجْهِهَا كُلُّ تَعْبِيرٍ، لَمْ تَعُدْ تَبْتَسِمُ، بَلْ نَظَرَتْ إِلَيَّ كَأَنَّهَا تَرَانِي لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ. ثُمَّ قَالَتْ بِصَوْتٍ يَخْتَلِطُ فِيهِ الفَخْرُ بِالخَوْفِ:
"الوَطَنُ يَحْتَاجُكَ... وَأَنَا أُحِبُّكَ...أَنْتَ كُلُّ مَا أَمْلِكُ. فَكَيْفَ لِي أَنْ أُقَدِّمَكَ لِلسِّجْنِ أو لِلمَوْتِ طَوْعًا؟"

فَنَظَرْتُ فِي عَيْنَيْهَا، وَهَمَسْتُ:
"أَتَحْسَبِينَ يَا أُمِّي أَنَّنَا نَعِيشُ خَارِجَ السِّجْنِ؟ مَاذَا نَفْعَلُ هُنَا سِوَى التَّجَوُّلِ فِي قَفَصٍ كَبِيرٍ نُسَمِّيهِ بَيْتًا؟ نَخْدَعُ أَنْفُسَنَا بِأَنَّ الْقَيْدَ مَا كَانَ لَهُ أَسْوَارٌ وَجُنُودٌ، وَنَنْسَى أَنَّ أَسْوَارَنَا تُزَيَّنُ بِالزُّهُورِ".

لَمْ تُجِبْ. وَقَفَتْ، ثُمَّ جَلَسَتْ، ثُمَّ بَكَتْ. كَأَنَّهَا سَمِعَتْ صَوْتَ أَبِي فِي كَلِمَاتِي، أَوْ رُبَّمَا رَأَتْ فِيَّ ظِلَّهُ. فَاحْتَضَنْتُهَا، وَقَبَّلْتُ يَدَيْهَا، وَكُنَّا نَبْكِي مَعًا حَتَّى جَاءَتْ أُخْتِي الصَّغِيرَةُ تَرْكُضُ نَحْوَنَا، لَا تَفْهَمُ شَيْئًا، فَانْضَمَّتْ إِلَيْنَا.

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، نِمْنَا جَمِيعًا فِي نَفْسِ الْغُرْفَةِ. أُمِّي أَرَادَتْ أَنْ تَمْلَأَ ذَاكِرَتَهَا بِنَبْضِي، قَبْلَ أَنْ أُغَادِرَ إِلَى مَصِيرٍ غَامِضٍ.

وَمَا كَانَتْ تَدْرِي أَنَّ تَحَرُّكَاتٍ سَتَنْتَهِي فِي نَفْسِ الْيَوْمِ بِدَمٍ وَدَمْعٍ، بِاسْتِشْهَادِ عَدَدٍ مِنَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، وَاعْتِقَالَاتٍ طَالَتْنِي. فَبَعْدَ سَوَيْعَاتٍ، اجْتَاحَتِ الْقُوَّاتُ بَيْتَنَا. كُنَّا نِيامًا، حِينَ سَمِعْنَا صَوْتَ بَابٍ يُخْلَعُ وَجُنُودٍ تَعْلُو صَرْخَاتُهُمْ. انْتَفَضَتْ أُمِّي، وَوَضَعَتْ حِجَابَهَا، وَصَرَخَتْ فِي أُخْتِي لِتَحْمِيَهَا... أمّا أنا، فلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ تَوْدِيعِهَا، إِذِ انْقَضَّ عَلَيَّ وَاحِدٌ مِنْ جُنُودِهِمْ، سَحَبُونِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَأَنَا أَمُدُّ ذِرَاعِي نَحْوَهَا، حَتَّى فَقَدْتُ الْوَعْيَ مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبِ. اسْتَيْقَظْتُ فِي الزِّنْزَانَةِ وَأَنَا لَا أَذْكُرُ لِي اسْمًا وَلَا لَقَبًا، فَقَطْ شُعُورٌ بِالْغُرْبَةِ وَالْبَرْدِ وَالْخِذْلَانِ... وَوَجْهُ أُمِّي.

3

كنتُ أُدِيرُ عَيْنَيَّ فِي الزِّنْزَانَةِ، وَأَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ أُعَلِّقُ عَلَيْهِ بَصَرِي... فوَقَعَ نَظَرِي عَلَى خُدُوشٍ فِي الحَائِطِ، بَدَتْ لِي كَأَنَّهَا خَارِطَةٌ لِفِلَسْطِينَ. تَرَاكَمَتْ فِي ذِهْنِي تِلْكَ المُدُنُ الَّتِي شَتَّتَهَا الغَاصِبُونَ، رَأَيْتُ بَيْتَ حَانُونٍ فِي الشَّمَالِ، وَرَأَيْتُ غَزَّةَ فِي الجَنُوبِ، وَرَأَيْتُ القُدْسَ فِي القَلْبِ. رَأَيْتُهَا جَمِيعَهَا، رَغْمَ أَنَّنِي كُنتُ مَحْبُوسًا فِي زِنْزَانَتِي الصَّغِيرَةِ، فَاهْتَزَّتْ جَنَبَاتُ قَلْبِي، وَصَاحَتِ الرُّوحُ: "أَرْضِي أَنَا"!

مِنْ تُرَابِهَا وُلِدْتُ، وَعَلَى ثَرَاهَا أَيْنَعَتْ زُهُورُ أَجْدَادِي. فَهَلْ يَجُوزُ لِي أَنْ أَتَنَصَّلَ مِنْ قَضِيَّتِهَا؟! هَلْ أَتَخَلَّى عَنْهَا وَقَدْ كَانَتْ لِي مَأْوَى وَمَثْوَى؟! لَا وَاللَّهِ، إِنِّي لَهَا، مَهْمَا تَدَاعَتِ الأَحْلَامُ وَالأَمَانِيُّ.

إِنِّي لَهَا، وَإِنْ جَارُوا عَلَيْهَا، وَرَفَعُوا عَلَيْهَا أَعْلَامَ زَيْفِهِمْ...
إِنِّي لَهَا، وَإِنْ تَطَاوَلَ الزَّمَانُ، وَغَفَلَ العَالَمُ، وَتَخَلَّى الأَشِقَّاءُ، وَنَامَتِ الضَّمَائِرُ.
إِنِّي لَهَا، أَذُودُ عَنْهَا كَمَا يَذُودُ اللَّيْثُ عَنْ أَشْبَالِهِ.

سَأَنْتَزِعُهَا مِنْ بَرَاثِنِهِمْ، دُون أنْ أَهَابَ جُنُونَ بَطْشِهِمْ... أَرْضِي أَنَا، سَأُعِيدُهَا، مَهْمَا يكُنْ طَمعُ الطّامِعينَ في وَعْدِ بِلْفُورِ! مَا أَحْقَرَهُمْ من قَتَلَةٍ غَاصِبينَ، بَني حِقْدٍ وَفِتْنَةٍ! فَلْيَتَيَقَّنُوا أَنَّ شَعْبِي لَنْ يبيعَ قَضِيَّتَهَ ولن يَنْسَى ثَأْرَهُ. هَذِهِ هِيَ فِلَسْطِينُ، أَرْضُ المَجْدِ وَالصُّمُودِ، أَرْضُ القُدْسِ وَالضِّفَّةِ وَغَزَّةَ، أَرْضُ الشُّهَدَاءِ وَالجِرَاحِ وَالأَمَلِ، أَرْضِي أَنَا، وَأَرْضُ أَجْدَادِي...

4

خَطَوْتُ داخِلَ الزّنْزانَةِ الجَماعِيَّةِ، وَمَضَتِ السّاعَاتُ الأُولى كَأَنَّها دَهْرٌ مِنَ الصَّمْتِ. لا أَحَدَ تَكَلَّمَ، وَلا حَتَّى هَمْسَةٌ تَسَلَّلَتْ بَيْنَنا. وَحْدَهُ صَوْتُ الأَنْفاسِ كانَ يُؤَكِّدُ أَنَّنا لا نَزالُ أَحْياءَ. وَلَمْ أَدْرِ مَتى صارَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ في رَأْسِيَ اسْمٌ مُؤَقَّتٌ؛ الرَّجُلُ الْمُنْحَنِي ظَهْرُه صارَ "الشَّيْخَ"، صاحِبُ السّبْحَةِ الطَّوِيلَةِ صارَ "الهادِي"، عابِسُ الْمَلامِحِ مَنَحْتُهُ لَقَبَ "الْجِدارِ."

وأَنا؟ لَمْ أَكُنْ أَجْرُؤُ عَلَى وَصْفِ نَفْسِي بَعْدُ، كُنْتُ أَعِيشُ بَيْنَهُمْ وَلا أَنْتَمِي.

فِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، حِينَ هَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ، سَأَلَنِي "الهادِي" بِصَوْتٍ خَفِيضٍ بِالْكَادِ يُسْمَعُ:

-كَمْ يَوْمًا مَضى عَلَيْكَ هُنا؟

أَجَبْتُهُ: ثَلاثَةٌ.

قالَ: تَحْتاجُ ثَلاثِينَ لِتَتَعَلَّمَ كَيْفَ تَتَماسَكُ دُونَ أَنْ تَنْهارَ.

ثُمَّ أَعادَ أَصابِعَهُ إِلى سبْحَتِهِ، وَأَكْمَلَ الْعَدَّ...

فِي الْيَوْمِ الْخامِسِ، كُنْتُ أُراقِبُ الشَّيْخَ عَنْ قُرْبٍ، كانَ لا يَتَحَرَّكُ كَثِيرًا، يَجْلِسُ قُبالَةَ الْجِدارِ كَأَنَّهُ يَسْتَمِعُ لَهُ. وَحِينَ اقْتَرَبْتُ مِنْهُ، قالَ دُونَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ:

-لا تُحَدِّقْ طَوِيلًا... الْجُدْرانُ هُنا تَمْتَصُّ الذِّكْرَياتِ، وَقَدْ تَسْرِقُ مِنْكَ اسْمَكَ.

ضَحِكْتُ بِخِفَّةٍ، لا سُخْرِيَةً، بَلْ ذُهُولًا مِنْ طَرِيقَتِهِ فِي الْكَلامِ...

أَمَّا "الْجِدارُ"، فَكانَ الأَصْعَبَ. لا يَتَحَدَّثُ، لا يَنْظُرُ، لا يَبْتَسِمُ. صَوْتُهُ غائِبٌ تَمامًا. كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ يُوحِي بِأَنَّهُ يُراقِبُ وَيَخْتَزِنُ. وَحِينَ كَسَرْتُ حاجِزَ الصَّمْتِ، وَقُلْتُ لَهُ: أَلا تَتَكَلَّمُ؟ أَجابَنِي بِأَنَّهُ لا جَدْوَى من الحَدِيثِ...

مَرَّتِ الأَيَّامُ، وَصارَتِ الأَسْماءُ تَنْبُتُ شَيْئًا فَشَيْئًا. صارَ الشَّيْخُ اسْمُهُ عَبْدُ الْغَنِيّ. وَالهادِي: سامِر. وَالْجِدارُ: نادِر. كُنَّا نَكْسِرُ جِدارَ الْوَحْشَةِ بِالْحِكاياتِ، لا عَنْ ماضِينا، بَلْ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ.

قالَ سامِرُ ذاتَ يَوْمٍ:

-أَنا لَنْ أَخْرُجَ. وَلَكِنْ، لَوْ خَرَجْتُ سَآخُذُ أُمِّي إِلَى الْبَحْرِ، لَمْ تَرَهُ يَوْمًا، وَلا تَعْرِفُ لَوْنَهُ.

أَمَّا عَبْدُ الْغَنِيّ، فَقالَ:

-كُلُّ ما أُرِيدُهُ، هو أَنْ أَنامَ فِي غُرْفَتِي، عَلَى سَرِيرِي.

وَنادِر... لَمْ يَقُلْ شَيْئًا. فَقَطْ أَدارَ وَجْهَهُ، وَضَرَبَ الْحائِطَ بِقَبْضَتِهِ مَرَّتَيْنِ.

كُنْتُ أَسْتَمِعُ، وَأَحْفَظُ، كَأَنِّي الْمُكَلَّفُ بِجَمْعِ أُمْنِيَاتِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَتَبَخَّرَ.

ثُمَّ أَتَى الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَفَى فِيهِ نادِرٌ. لَمْ نَسْمَعْ صَوْتَهُ، لَمْ نَرَهُ. فَقَطْ وَجَدْنا مَكانَهُ خالِيًا... قِيلَ: نُقِلَ، وقِيلَ: أُطْلِقَ سَراحُهُ، وَقِيلَ أَشْياءُ أُخْرى لا نَسْتَطِيعُ التَّحَقُّقَ مِنْها.

وَفِي صَفْقَةٍ مُفاجِئَةٍ، نادَوُا اسْمَ سامِرٍ. لَمْ يُصَدِّقْ... بَكَى... سَجَدَ... وَأَخَذَنِي فِي حُضْنٍ طَوِيلٍ، وَقالَ:

-احْفَظْنا... احْفَظْنا بِاللهِ، لا تَنْسَنا.

وَبَقِيَ عَبْدُ الْغَنِيّ، وَأَنا.

وَفِي يَوْمٍ بارِدٍ، نامَ عَبْدُ الْغَنِيّ باكِرًا. اسْتَيْقَظْتُ فِي الْفَجْرِ عَلَى صَمْتٍ ثَقِيلٍ. حاوَلْتُ أَنْ أُوقِظَهُ... كانَ جَسَدُهُ دافِئًا، وَلَكِنَّهُ لا يَتَحَرَّكُ. نادَيْتُ. لَمْ يُجِبْ.

حِينَ دَخَلَ الْحارِسُ، صَرَخَ: "ماتَ"!

كَأَنَّهُ يُعْلِنُ خَبَرًا رَتِيبًا.

كُنْتُ أُراقِبُهُمْ واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ، أَتَعَلَّقُ بِكَلِماتِهِمْ، أَكْتُبُ مَلامِحَهُمْ فِي ذاكِرَتِي كَأَنِّي أَعْرِفُ أَنَّهُمْ سَيَرْحَلُونَ. وَقَدْ كانُوا يَرْحَلُونَ فِعْلًا... واحِدًا بَعْدَ آخَرَ.

وَحِينَ غادَرْتُ أنا، إِلَى الزّنْزانَةِ الانْفِرادِيَّةِ، أَدْرَكْتُ أَنَّنِي كُنْتُ آخِرَهُمْ، وَآخِرَ مَنْ يَحْفَظُ أَسْماءَهُمْ.

5

وخَرَجْتُ...

خَرَجْتُ مِنْ ذلِكَ النَّفَقِ الْمُعْتِمِ الَّذِي ابْتَلَعَ ثَمانِيَةً وَعِشْرِينَ عامًا مِنْ عُمْرِي... فُتِحَ بَابُ السِّجْنِ... كَانَتْ خُطُوَاتِي عَلَى أَرْضِ الْمَمَرِّ الْبَارِدِ تُحْدِثُ صَدًى غَرِيبًا. رَائِحَةُ أَنْفَاسِي المُضْطَرِبَةِ وَالصَّدَإِ تَمْتَزِجُ فِي أَنْفِي، وَأَصَابِعِي تَلْمَسُ بِحَذَرٍ جُدْرَانًا قَدْ حَفِظَتْ كُلَّ أَسْرَارِي.

يَنْفَتِحُ بَابُ السِّجْنِ بِصَرِيرٍ طَوِيلٍ، كَأَنَّهُ يُعْلِنُ عَنْ طَرْدِ شَبَحٍ قَدِيمٍ، ثمّ أُسْلِمَ جَسَدِي النَّحِيلُ إِلَى جُنْدِيٍّ يَقُودُنِي خَارِجًا. وَفِي لَحْظَةٍ، وجَدْتُنِي فِي وَجْهِ الصّحَافَةِ، وَعُيُونِ الْعَامَّةِ، وَفُضُولِ الْعَالَمِ: كَامِيرَاتٌ تُشْهِرُ أَعْيُنَهَا فِي وَجْهِي، مِيكْرُوفُونَاتٌ تَتَدَافَعُ: "مَا شُعُورُكَ بَعْدَ كُلِّ هذِهِ السِّنِينَ؟"

وَلكِنِّي لَا أُجِيبُ. أُحَدِّقُ فَقَطْ فِي الْعَدَسَاتِ كَأَنِّي أَرَى مِنْ خَلْفِهَا وُجُوهًا أَشَدَّ قَسْوَةً مِنْ وَجْهِ سَجَّانِي. كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ فِي الطَّرَفِ الآخَرِ مِنَ الْعَالَمِ، مَنْ يُشَاهِدُنِي على المُبَاشِرِ مِنْ أُمَّةِ المِلْيَارَيْنِ، فَيَتَنَهَّدُ لَحْظَةً، ثُمَّ يَمُدُّ يَدَهُ لِيُغَيِّرَ الْقَنَاةَ، كَمَا غَيَّرَهَا مِرَارًا. رَأَيْتُ فِي عُيُونِهِمْ كُلَّ الخِذْلَانِ، كُنَّا نَنْتَظِرُ مَوْقِفًا... نَصْرًا... حَتَّى بَيَانًا مُقْتَضَبًا يُقْرَأُ عَلَى عَجَلٍ فِي خَاتِمَةِ نَشْرَةٍ مُهْمَلَةٍ، كُنَّا نَمُوتُ... وَهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي صِيَاغَةِ الإِدَانَةِ!

وَعِنْدَمَا بَلَغَنِي ذِكْرُ ذلِكَ التَّارِيخِ – السَّابِعِ مِنْ أُكْتُوبَر – وَسَمِعْتُهُمْ يُسَمُّونَهُ "طُوفَانَ الأَقْصَى"، فَهِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلاَّ زِلْزَالًا قَدِيمًا انْبَعَثَ لِيُنْهِضَ مَا أَخْمَدَهُ الصَّمْتُ، وَعَلِمْتُ أَنَّ ذلِكَ الْيَوْمَ لَمْ يَكُنْ سِوَى بَدَايَةِ الْعَدِّ التَّنَازُلِيِّ لِزَوَالِ الْغُزَاةِ.

سِرْتُ فِي الطُّرُقَاتِ الَّتِي كَانَتْ يَوْمًا مَا مَسْرَحَ أَحْلَامِي. بُيُوتٌ مُتَهَدِّمَةٌ، أَطْفَالٌ بِأَعْيُنٍ مِلْؤُهَا الحُزْنُ، وَنِسَاءٌ يَحْمِلْنَ فِي وُجُوهِهِنَّ آثَارَ الإِرْهَاقِ. وَكُلَّمَا اقْتَرَبْتُ مِنْ بَيْتِي، كَانَ قَلْبِي يَخْفِقُ أَكْثَرَ، وَتُزَاحِمُنِي صُوَرُ أُمِّي... أُمِّي وَهِيَ تَفْتَحُ لِي الْبَابَ، تَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهَا، تُخَبِّئُ فِي طَرَفِ خُبْزَةٍ بَعْضَ الزَّعْتَرِ.

إِلَى أَنْ بَلَغْتُ الْمَكَانَ... فَلَمْ أَجِدْ بَيْتًا. وَجَدْتُ أَطْلَالًا وَرُكَامًا يَشْهَدانِ أَنَّ الْحَرْبَ حَامَتْ هُنَا. وَقَفْتُ أَسْأَلُ: "أَيْنَ هِيَ؟" فَصَمَتُوا. ثُمَّ هَمَسَ أَحَدُهُمْ: «أُمُّكَ... وَافَتْهَا الْمَنِيَّةُ مُنْذُ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، يَا خَالِدُ».

كَأَنَّ الَّذِي هَمَسَ لِي بِمَوْتِهَا أَخْرَسَ كُلَّ أَصْوَاتِ الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِي... تَرَاجَعْتُ خطْوَةً، ثُمَّ خطْوَتَيْنِ، وَعَيْنَايَ تَجُوبَانِ السَّمَاءَ كَأَنَّهُمَا تَسْتَجْدِيَانِ جَوَابًا مِنَ اللَّهِ.

تَدَفَّقَتْ إِلَيَّ صُوَرُهَا... يَوْمَ كُنْتُ أَصْحُو عَلَى صَوْتِهَا تُوقِظُنِي لِلْفَجْرِ، تُقَرِّبُ إِلَيَّ يَدَيْهَا الدَّافِئَتَيْنِ، تَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهِي، ثُمَّ تُنَاوِلُنِي فَطِيرَةً سَاخِنَةً. أَتَذَكَّرُهَا وَهِيَ تَجْلِسُ بِجَانِبِي عَلَى عَتَبَةِ بَيْتِنَا، تَخِيطُ ثَوْبِيَ الْمُمَزَّقَ وَتُغَنِّي تِلْكَ الأُغْنُوْدَةَ القَدِيمَةَ...

أَتَذَكَّرُ يَوْمَ جَاؤُوا لِيَأْخُذُونِي... كَانَتْ عَيْنَاهَا تَتَّسِعَانِ رُعْبًا وَأَنَا أُكَبِّلُ أَمَامَهَا. صَرَخَتْ، بَكَتْ، وَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى صَدْرِهَا وَقَالَتْ: «اللَّهُ مَعَكَ يَا وَلَدِي». وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ كُنْتُ أَعِيشُ عَلَى ذِكْرَى صَوْتِهَا.

لَمْ أُجِبْ مَنْ أَخْبَرَنِي، بَلْ أَطْرَقْتُ. ثُمَّ قُلْتُ بِهُدُوءٍ: «أُرِيدُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا».

وَصَلْنَا إِلَى مَقْبَرَةٍ صَغِيرَةٍ، بَيْنَ أَشْجَارِ الزَّيْتُونِ. وَقَفُوا بِي أَمَامَ قَبْرٍ جَدِيدٍ نِسْبِيًّا...
جَثَوْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ، وَمَدَدْتُ يَدِيَ الْمُرْتَجِفَةَ أَلْمَسُ تُرَابَهَا، وَأَضَعُ جَبِينِي عَلَيْهِ، وَهَطَلَتِ الدُّمُوعُ الَّتِي حَبَسْتُهَا طِوَالَ ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا. وَعِنْدَهَا فَقَطْ، عَلِمْتُ أَنَّ حُرِّيَّتِي عادتْ إِلَيَّ مَكْسُورَةً... لأَنَّهَا عادَتْ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ .

6

قصصٌ لا تَنْتَهِي من المآسِي والبُطولات التي تَبْكِيها الأرضُ صَمْتًا...
كلُّ زَاوِيَةٍ في مَدِينَتِنا تَحْمِلُ قِصَّةً مَفْعَمَةً بالوَجَعِ، نَهْرٌ من الدَّمِ القاني يَسِيلُ بلا تَوَقُّفٍ، وأَصْوَاتٌ تَنْبَعِثُ مِنْ تَحْتِ الرُّكامِ، صَرَخاتٌ تُمَزِّقُ سُكُونَ اللَّيْلِ، وَ نِداءُ شابٍّ يَتَأَلَّمُ: "إِجَتْ جُثَّةٌ"!
فَيَتَجَمَّعُ حَوْلَهَا أَهْلُ المَفْقُودِينَ، تَتَلَمَّسُ أَيْدِيهِمْ وُجُوهًا لَمْ يَعُودُوا يُمَيِّزُونَهَا، يَبْحَثُونَ عَنْ ظِلٍّ مِمَّنْ أَحَبُّوا، عَنْ لَمْسَةٍ أَخِيرَةٍ، عَنْ حَيَاةٍ غَادَرَتْ فَجْأَةً بلا وَدَاعٍ.

هَلْ كَانُوا يَأْمَلُونَ، مَعَ كُلِّ جُثَّةٍ تَسْقُطُ، أَلَّا يَكُونَ هُوَ؟ أَمْ أَنَّ مَوْتَهُ كَانَ خَلَاصًا، فُرْصَةً لِلرَّاحَةِ مِنْ انْتِظَارِ قَاتِلٍ، مِنْ عَذَابٍ اِمْتَدَّ بلا نِهَايَةٍ؟

رَائِحَةُ الجُثَثِ المضرَّجَةِ بالدِّمَاءِ تَفُوحُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَالجَيْشُ الجَائِرُ يَجُوبُ الشَّوَارِعَ، حَوَاجِزُ لَيْلِيَّةٌ، أَبْطَالٌ يَشْهَدُ لَهُمُ الزَّمَانُ، شُهَدَاءُ تَغْفُو أَرْوَاحُهُمْ فِي سَلَامٍ، دُمُوعٌ، خَوْفٌ، شَجَاعَةٌ... كُلُّ هَذِهِ تَفَاصِيلُ شَحَذَتِ الوَاقِعَ الَّذي نَعِيشُهُ.

وَفِي وَسَطِ هَذَا الدَّمَارِ، اِجْتَمَعْتُ بثُلّةٌ مِنَ الشُّبَّانِ الوَاعِدِينَ، وَخَطَبَتْ فِيهِمْ:

"يَا إِخْوَتِي، يَا رِفَاقَ الدَّرْبِ، هَلْ سَمِعْتُمْ عَنْ قِصَّةِ مَهْزَلَةِ العُصُورِ؟ أَبْطَالُهَا الحَقُودُ، وَالشِّرِّيرُ، وَفَاقِدُ الضَّمِيرِ؟ أَتَوا إِلَيْنَا كَالطَّاعُونِ الَّذي يَجْتَاحُ الأَرْضَ، جَاثِمِينَ عَلَيْهَا عَابِثِينَ فِيهَا فَسَادًا مَا يَرْبُو على الخَمْسةِ وَالسَّبْعِينَ عَامًا. سَيَأْتِي يَوْمٌ يَهْمِسُ الجَبَّارُ المَهْزُومُ مُرْتَعِشَ الشَّفَاهِ: "لَيْسُوا ضُعَفَاءَ كَمَا ظَنَنَّا، بَلْ هُمْ أَقْوِيَاءُ. فَلْيَأْخُذُوا مَا يُرِيدُونَ. إِنِّي قَدْ سِئِمْتُ مِنَ صِرَاعِ طُلَّابِ الحَيَاةِ"'.

ثُمَّ عَادَتِ الصُّوَرُ السَّوداءُ تُلاحِقُنَا: صُوَرُ الخِيَانَةِ، النَّذَالَةِ، الخُنُوع، وَتَرْوِيعِ نِسَائِنَا، شُيُوخِنَا، وَأَطْفَالِنَا الأَبْرِيَاءِ.

لَكِنَّ العَدُوَّ مَهْمَا طَالَ زَمَنُهُ، سَيَذُوقُ الهَزِيمَةَ، سَيَعُودُ أَدْرَاجَهُ مَخْذُولًا مَهْزُومًا، لِأَنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ، وَالحَقَّ بَاقٍ، وَالمُقَاوَمَةَ حَيَّةٌ فِي قُلُوبِنَا.

فَتَمَسَّكُوا بِهَذَا الأَمَلِ، فَهُوَ الشُّعْلَةُ الَّتِي لا تَنْطَفِئُ فِي عَتْمَةِ هَذِهِ الحَرْبِ الطَّوِيلَةِ.

إِنَّهَا النِّهَايَةُ الَّتِي لا مَفَرَّ مِنْهَا، صَرْخَةُ الحُرِّيَّةِ الَّتِي لا يَكْتُمُهَا صَدَى الرَّصَاصِ، وَعَدُ اللهِ الَّذِي لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ.

وَهَا نَحْنُ اليَوْمَ، عَلَى أَعْتَابِ فَجْرٍ جَدِيدٍ، نُعْلِنُهَا بِثَبَاتٍ: النَّصْرُ لَنَا، وَالنَّصْرُ قَادِمٌ لا مَحَالَةَ...

✦ ✧ تمَّتْ بِبَرَكَةِ اللهِ ✧ ✦